

حفي بك ناصف

تاريخ حياته

هو محمد الحفي بن الشيخ اسماعيل بن الشيخ خليل بن ناصف ، كان أبوه من أهل العلم وتوفي قبل ولادة ابنه بشهرين أو ثلاثة . ولد المترجم بركة الحج^(١) في ٥ محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٥٥ م ، وما ترعرع حتى دفع إلى كتاب البلدة فتعلم الخط وحفظ القرآن جميعه ولما كان فيه المكتب يفرط في ضرب تلاميذه ، وكان هو منذ نشأته يأبى الضيم وينزع إلى الحرية والعلم — وقد بقي كذلك حتى وفاته — فقد هرب إلى الأزهر فكث فيه عشر سنين متتابعة ، جرد القرآن في الأولى منها وحفظ المتن المعتاد حفظها ، وتعلم في التسع الباقية فقه الشافعي والصرف والنحو وعلوم البلاغة والنروض والتأنيب والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث ، وحصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الأشموني . على أنه لم يقع بدراسة هذه العلوم المدرسية ، فأخذ يتعلم خارج الأزهر علم الميقات ومبادئ الفلك والأشياء والشعر والأدب وغير ذلك ، وسافر في غضون تلك المدة إلى الحجاز والشام للحج وزيارة المشاهد المقدسة وذاعت شهرته في الأزهر بالتعوا والشعر ، وأصبح — بطريقة غير رسمية — يعلم يشرح ابن عقيل على الألفية ، وكان نوابغ الطلبة يسألونه في النحو عما سألوا فلم يعجز عن الجواب مرة واحدة ، أما في الشعر فقد كان لقصائده القدح المعلن في كل المنعلات الأدبية التي كانت تقام في بعض أروقة الأزهر فيتبارى فيها شعراؤه من كل صوب ، وكان الأزهريون يستكثرون عليه تلك القصائد ويظنون أنه قد يكون سرقتها من الدواوين القديمة ، ناقترح عليهم أشعرهم في ذلك الوقت — فضيلة الشيخ عبد الرحمن قرآنة — أن يساجله في شعر حدد موضوعه واختار بجره وقافيه فساجله على مشهد من الطلبة حتى صنعا أكثر من مائة بيت في أقل من ساعة ، ومن ذلك الوقت آمن الجميع بشاعريته وأخذ طلاب الشعر من الأزهريين يلتقون بحرله ويعرضون عليه قصائدهم فيزيد فيها أو ينقص.

وكان يود أن يقضي حياته في الأزهر بين تعلم وتعليم ، ولكن مدرسة دار العلوم كانت قد انشئت في ذلك الوقت ففضل أن ينتظم فيها حتى لا تدرته علومها الحديثة ، وقد كان مستوى التعليم في تلك المدرسة أرق مما هو الآن ، فامتحن مع مائة وخمسين طالبا من أبناء الأزهريين

(١) سميت بركة الحج لانها كانت محط رجال العمل فيبل ساره الى الحجاز كل عام ، وربما وقع الاختيار عليها لانها كانت على حدود الجزء المسور من الدكا ، وقد أدى سد كبير من أهلها فريضة الحج ، وأهم مزدولها الحج (البركاوي)

فُجِرَ صَبيَ أربعة عشر كان هو أولهم ، ولم يزال حافظاً لهذه الأولية حتى تخرج من المدرسة بعد سنوات أربع تعلم فيها فقه أبي حنيفة والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافية والفيزياء والكيمياء ودرجات الاعضاء والهيئة وسياذير اللغة الفرنسية ، وذلك زودة على التوسع في العلوم التي كان يدرسه من قبل

وفي تلك الاثناء كانت الثورة العربية قد نشبت فقام بتعيينه فيها بالخطابة والندابة السياسية وانتظم في سلك للتطوعين وفي شهر ربيع الثاني في قشلاق عابدين تنوب فيه عن ازمائة وبسبب فنون الجديدة ، وكان يجيد السباحة والغطس في احد غير ما توف بين الازهرين

وأول منصب تولاؤه بعد خروجه من المدرسة تعليم الطرس والعميان ، فتيسر له في ثلاث سنين أن جعل الطرس يكثرون كل ما يريدون من المعاني ويفهمون ما يكتبه الناس لهم ، فندت الكتابة عندهم مكان الكلام والسمع وتيسر له تعليم الكبار من العميان الألفية كلها ورسالة الفضالي في التوحيد ومنظومة الشيخ حمد قسم في علم الميقات ، وقد نبغ منهم الشيخ مصطفى المنكي البقاعي ، وكان مترجم كفي حاول الانتقال من هذه المدرسة وقت في طريقه للمفتي أنسي بك خوفاً على المدرسة أن تنفض حركتها

ثم انتقل كاتباً خصوصياً (مكراً بمرآة) لتخفيف بك منسود وكان هذا ميلاً لتأليف والتصنيف ولكنه لم يكن يعرف من علوم اللغة العربية ما يمكنه من ذلك ، فسأده المترجم من حيث اللغة والمادة ، كما ساعده غيره في وضع عدة كتب وترجمة اخرى

وانتخب مع الشيخ حمزة فتح الله ومحمود بك رشاد للرفود الى مؤتمر المستشرقين في مدينة فينا تحت رئاسة ارنين باشا ، وقدم كل من الثلاثة بحثاً علمياً ، فلم يقبل في محاضر جلسات المؤتمر ولم يطبع في مجموعته سوى رسالته هو (مميزات لغات العرب)

ولما استعفى شقيق بك من عمل النيابة انتقل المترجم الى مدرسة الحقوق معلماً للانشاء القضائي والانشاء العام والبلاغة والنطق وآداب المناظرة ، وقد مكث في تلك المدرسة خمس سنوات نبغ على يديه فيها أشهر المنشئين والمترافعين والمترجمين والشعراء^(١)

وقد كلفت وزارة المعارف في تلك المدة تأليف كتب سهلة يتعلم التلاميذ فيها قواعد النحو والصرف والبلاغة ، فغنيهم عن تلك المطولات الخالية من التبويب والتي لا تلائم اذهان الطلبة بحال ، فألف كتباً خمسة جرى عليها العمل من ذلك الوقت الى الآن ، وتعلم بها الوف الناشئين في مصر وغيرها. وكانت مطبوعة المباحة ترجع اليه لتصحيح اسماء البلدان في اطالسها ثم نقل الى القضاء الاهلي ومكث فيه عشرين سنة كاد فيها ضمناً للعبد والانصاف ومثلاً للتصبر

(١) تذكر منهم مصطفى كامل وقد أتم دراسته بتولوز ، ورضه حسين وعبد الهادي الحدي وأحمد شوقي وأحمد لطفي السيد وأحمد زكي وعبد الحائق تروت وراهنيل صديق وتوفيق نسيم وطلعت حرب وأحمد زكي أبو السعود





حفي ناصف وجه الله

امام صفحه ٥٩٩

مقتطف ديسمبر ١٩٣٢

والجانبين عن الأثر الهام والاشجاعة ولا يزال أهل البلاد التي تولى القضاء فيها يتصدون بألفانه وودقة بحمده
وكان في خلال تلك المدة قد فكر بغيره إذ إنقاذ التعليم من الترددي في الهوة التي تدفقه
نهب الاستعمارية البريطانية بقدرها، حيثة حتى تخرج المبرزين دون انشاء ثقافة حقيقية ،
وقدر رأى هن وزملاؤه ان يبدأوا سبهم بالشاء الجامعة المصرية واخذوا في الدعوة الى هذا
المشروع ، ودرك الانجليز خطورة الفكرة فعلموا من فاحيتهم كل ما يستطيعون لئلا يصبغ
الجامعة ، فأوحوا إلى صنائعهم ان يظنوا ويرزوا بالدعوة الى نشر التعليم الاولي كي يصعب
بين ضجيجهم صوت الداعين الى انشاء الجامعة ، وعين سعد باشا زغلول اذ ذاك وزيراً
فاستقال من عضوية مجلس ادارة الجامعة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونقل للترجم من مصر الى
قنا في ابريل سنة ١٩٠٨ ليتخلصوا من نشاطه وكفائته .

ومع ذلك ظل المترجم وزملاؤه (ومنهم علي علوي باشا ومحمد بك فريد ، وقد طلب
اليه مجلس الادارة ان يتنحى عن العسل في لجنة الجامعة نظراً لتطرف لونه السياسي فقبل ،
وعبد العزيز جاويش بك وقاسم امين بك وعبد العزيز فسي باشا) ينادون بالشاء الجامعة
المصرية ويؤيدون البلاد ومخطوون في الناس ويجمعون الاموال من تقدي وعقار ووقف ، وكل
عملهم في النهاية بالنجاح وان يكن نجاحاً محدوداً ، فاندت الجامعة ولكن الدراسة فيها كانت
متسرة على الحقوق والآداب ، واختير المترجم بعد ذلك لتعليم الادب العربي وتربيته ،
فدرسه سنتين مع اشتغاله بالقضاء ، ووضع خلال تلك المدة ثلاثة اجزاء من كتاب الادب
العربي ضمنه ابحاثاً لم تكن مطروقة من قبل ، وسافر بعد ذلك الى مؤتمر المستشرقين في اثينا
وقدم لهم من الباحث ما فاز بتقديرهم وامحياهم

واسدر وهو وكيل بمحكمة طنطا على عهد باشا مدير الغربية اذ ذاك ، حكماً مديناً
له حيثيات توجب محاكمة المدير جنائياً ، وكان من اثر مثل هذه الاحكام ان بقي في طنطا
بضع سنوات بدون ارتقاء في المنصب او ازدياد في المرتب ، وحدث ان احبل الشيخ حمزة
فتح الله المنقش الاول للغة العربية الى المعاش ، فتمجبت الانظار الى المترجم وألحت عليه وزارة
المعارف في قبول ذلك المنصب فوافق في النهاية ، على ان صوت الوشاة حال دون ترقيه ، فلم
يزدد مرتبه قرشاً واحداً في السنوات الثلاث التي قضاه في المعارف

وكان يوجه اكر عناية في تلك المدة الى تنقية اللغة العربية من الالفاظ العامية والدخيلة
ووضع اصطلاحات صحيحة للعلوم التي كانت تدرس باللغة الاجنبية ثم تقرر تدريسها بالعربية ،
وتنقيح مناهج اللغة العربية ووضع كتب جديدة للمطالعة واخرى في مادة اللغة نفسها ، ولكن
ذلك لم يتيسر له كله فقد رأث الوزارة ان الطوائف اليعقوبية في المدارس لم تعمل بقرم به المفتشون
وكان في ادوار حياته كلها يعيل الى الاندية الادبية ، فقد كان وكيلاً لجمعية الاعتدال

التي انشأها اصحاب المقتطف في اول وفودهم على مصر لمحاربة الخمر وحث الناس على الاعتصام
بالآداب القويمة ، وكان لها من الثأب ما لا يدركه تقاريره ، لأن نظراً لثقل شأنه أكثر
الجذبات التي تعمل الآن لتحقيق مثل هذا الغرض ، وأسرى في قنا نادياً يدعو الى الاخلاق الناضجة
كانت تلتقي فيه المحاضرات كل اسبوع ، وكان أكبر العائنين في نادي طنطا وقد التقي في بعض
محاضرات قبة ، وانشأ في القاهرة نادي دار العلوم للمباحث اللغوية والآداب العربية ، وقد
سار النادي خطوات واسعة في سبيل اصلاح اللغة ولولا الاشاعات التي دارت (قسيل الحرب) عن
محمد زغلول باشا في آخر وزارته وانها الم نادي بأنه منسحق له لأخرج هذا النادي كتباً جيدة وقواميس
منسحقة . وقد كان المترجم من اوائل الذين فكروا في انشاء مجمع لغوي ، وقد تكوّن
هذا المجمع فعلاً وعقد يضح جلسات في دار الكتب المصرية ، ولكن الأحوال حالت دون
استمراره وعمومه . وكان المترجم يعي بتتصيف أولاده وبناته وبوجه خاص كبراهم ملك ،
وهي أول سيدة مصرية طالبت برد حقوق المرأة باعتمادها . وقد أصبحت بعد زواجها واقمتها
بالمبوم توقيع قصائدها ومقالاتها في الصحف باسم « بنحة البادية » . ثم ختم عماله العلمية
بذلك العمل الضخم الا وهو تصحيح رسم المصحف العثماني . ولكي يدرك التقاريره شيئاً عن
قيمة ذلك العمل وما بذل في سبيله اتممه من الجهد والتضحية أرى ذكر الادوار التي مرّ عليها -
كان الخديوي السابق عباس حلمي يفتحن في قراءة القرآن . وسأل مرة هل شاة ما
يجمع طبع للمصاحف بحسب قواعد الاملاء الحديثة ، فعاكس بعض كبار علماء الازهر من
سيرة رغبة في تنفيذ ذلك الرأي ، ساروا الى تحبيذه والافتاء بحجراته وتفضيله ، وانفرد
المترجم أول الامر بالمعارضة في ذلك مراعاة لاصول القراءات وحقاً ان تعدد المصاحف في
شقي البلاد الاسلامية فيجبر ذلك الى تفكيك روابط الالفة التي يوثقها التراءى بين افراد
المسلمين على اختلاف شعوبهم ولغتهم . ثم انتنع بعض الفضلاء بهذا الرأي فانصروه فانصرو
وقد ادى النقاش في درسم خط المصحف على النمط الذي كتب به اول مرة في عهد
الخليفة عثمان بن عفان ، الى تبين اخطاء في رسم الحروف وقد اخذت تتكرر وتزداد بتوالي
الطبع من ذلك العهد حتى ما بعد الحرب ، فوجب العودة الى الصواب . وقد أسند هذا
العمل الى اشد المتحمسين له كما هي العادة . وكان المترجم اذ ذاك مفتشاً اولاً لصفة العربية
بوزارة المعارف ، فكان يقوم به الى جانب عمله الرسمي ، وكان يعاونه الاستاذان احمد
الاسكندري ومصطفى الغناني ، وكانوا يقطنون ثلاثهم حلوان فكانوا يجتمعون بمنزلنا هناك
ثم جاءت الحرب العظمى ١٩١٤ بريالاتها فعمدت الحكومة المصرية في ذلك الحين الى الاقتصاد
المعكوس فتبرعت للجيش الانكليزي بثلاثة ملايين من الجنيهات وتمحلت له عن اجر الانتقال في
السكك الحديدية وسنت قانوناً تجيل بمقتضاه الى المعاش كل موظف بلغ الستين من عمره ، ولم يطبق

هذا القانون على استيفاء الحكومة حينئذ بن طلق على المقضوب عليهم ذوي الشخصيات البارزة الذين لا تلبس في طلق قناتهم ولا يطأطئون رؤوسهم لمتظاهرين بالمباداة والسفاهة وصدر القانون المذكور فأصرر عدلي باشا ولكن وزير المعارف عن تنفيذه فيما يختص بأمانة المترجم عن المعاش رغم معرفة الوزير ان ذلك التنفيذ يهدد مشروع تصحيح رسم المصحف بالبقاء عليه وما منحور المترجم من فيرد منصبه حتى تشحت امامه سبل ازرق فعرض عليه بعض رؤساء الحكومة ان يعيدوا اسدبار جريدة التوحيد ويسندوا اليه رئاسة تحريرها بمقابل الف جنيه يتقدمها سنوياً - وهو مبلغ غير قليل باعتبار قوة الشراء في ذلك العهد - فرفض هذا العرض تقوراً من التورط في مناصرة سياسة الحكومة وما يحجب بها، ورغبة في التفرغ لانعام مشروع المصحف (وقد عرضت رئاسة التحرير بعد ذلك على المحرم محمود بك رشاد فرفضها هو الآخر) . وعرض عليه بعض المحامين ان يشترك واياهم في فتح مكتب للمحاماة فرفض وعرض عليه منصب رئيسي في ادارة التعليم بأحدى الجمعيات الخيرية الكبيرة فرفض ، وبلغ من اكباده على تصحيح رسم المصحف ان لم يبق له وقت يجمع فيه اشعاره وازجاله ونثره وأعداه ورسائله ومقاماته وبرتبها في كتب يشرف على طبعا بنفسه كما يفعل غيره من الادباء والشعراء ، وقد كانت كل هذه الاعمال خليقة بأن تدبر عليه بعض المال فضلاً عن قيمتها الادبية وقبل دخوله بعد اعاقته على المعاش فأزله مستوى معيشته كثيراً . وكان يعرف انه لن يعيش اكثر من بضع سنوات أخرى فلم يدفعه ذلك الى العمل لكسب بضعة آلاف من الجنيهات يتركها لاسرته الكبيرة ، بل زادته هذه المعرفة اكباباً على تصحيح رسم المصحف وقد نجح في اتمامه وأصلح بنفسه آخر مسودات المطبعة ، ثم كأنه شعر ان مهمته قد انتهت فأسام نفسه للموت بعد أشهر قليلة قضاه في المرض والاحزان

وقد كانت الحكومة سخية . . . في تقدير المكافأة التي صرفها لورثته على هذا العمل الذي استغرق من وقته ست سنوات (اذ ان العمل فيه بدأ قبل اعاقته على المعاش) والذي تخلى في سبيله عن بضعة آلاف من الجنيهات كان يستطيع ان يكسبها من اشتغاله بشيء آخر . أتدري كم قدرت مجرده ؟ بعائة جنيه أي بمعدل ١٣٠ قرشاً في الشهر . هذا هو الاجر الذي دفعته الحكومة مقابل ذلك العمل الضخم الذي ربح منه مئات الالف من الجنيهات والذي تذبح به دعايتها في طول البلاد الاسلامية وعرضها . هذا ما دفعته الحكومة لمصلح رسم القرآن . وهي التي دفعت بضعة آلاف من الجنيهات لمدرس انجليزي لانه ألف كتاباً صغيراً في الجزائرانيا . . . ولكنك تفتح المصحف فتجد في آخره ان هذا العمل قد تم في عهد الحكومة وعلى ثقة الحكومة وبناء على رغبة الحكومة . صدق من قال . وكتب ساعر لقاعد

عظام الدين حفني ناصف